يروض نفسه على التبلد ويخلد إلى الركود ، فلا عجب إذا كنت أقبل على المطالعة حيناً بعد حين[١] » .

٢ — الخطابة وازدهارها :

توفرت للخطابة في هذه الفترة عوامل عديدة دفعت بها أشواطاً في سبيل الرقى ، حتى تجاوزت مرحلتى الانتعاش والنشاط إلى مرحلة التألق والازدهار . وبرغم أن أهم أنواع الخطابة فى هذه الفترة كانت الأنواع السياسية والقضائية والدينية والاجتماعية — وهى الأنواع التى عرفت من قبل — فقد ارتقى كل نوع من تلك الأنواع رقيا ملحوظاً بما أتاحت له ظروف تلك الفترة من عوامل الرقى ووسائل الازدهار .

أما الخطابة السياسية ، فقد أتيح لها هذا الشعور الشديد بالحرية ، والاعتزاز البالغ بالأوضاع الديمقراطية ، مما أعقب ثورة سنة ١٩١٩ . كما أتيح لها النشاط السياسى الزائد ، والصراع الحزبى العنيف ، مما أعقب نيل البلاد للاستقلال الشكلى ، وفوزها بالدستور الشهيد ، ثم فتحها للبرلمان المضطهد ، وغرقها فى الحزبية المتناحرة[٢] .

وقد كانت كل هذه العوامل مما منح الخطابة السياسية مزيداً من النشاط ومزيداً من التجويد ، حتى ازدهرت فى المجالين الرسمى وغير الرسمى كما لم تزدهر من قبل .

ففى المجال الرسمى — الذى كان يتمثل فى البرلمان — كانت الخطابة السياسية وسيلة الحكومة لبسط خطتها والإقناع بسياستها والدفاع عن موقفها وكسب الثقة بها . كما كانت الخطابة أيضاً وسيلة المعارضة ضد الحكومة ،

(١) انظر : قبض الريح للمازنى ص ٥ وما بعدها .

(٢) انظر : المقال رقم ١ من المقالات الممهدة لدراسة الأدب فى هذا الفصل وعنوانها « بين الروح الوطنية والاتجاهات الحزبية » .

فى تفنيد ما ترسم من خطة ونقض ما تتخذ من سياسة وإضاعة ما تنال من ثقة[١] .

وفى المجال غير الرسمى — وهو أفسح المجالات — كانت الخطابة السياسية من أقوى وسائل الأحزاب فى كسب الأنصار وهزيمة الخصوم ومحاولة الوصول إلى الأهداف . فالحزب غير الحاكم ، كان يعقد الاجتماعات السياسية ، ويقيم المؤتمرات الشعبية ، ليعرض أخطاء الحكومة ، ويبسط أهدافه فى السياسة ، ويسرد وعوده إذا حكم . كل هذا على ألسنة الخطباء المحاولين لكسب الجماهير بالكلمة المنطوقة الآسرة[٢] .

وفى كثير من الأحيان كان يحاول خطباء الحزب الحاكم — أو الأحزاب الحاكمة — أن يدافعوا عن سياسة الحكومة ، وأن يبرروا مسلكها ، ويسندوا وضعها ، كما كانوا يحاولون تضخيم أخطاء خصومهم ، وتشويه مسلك معارضيهم ، كل هذا فى مؤتمرات واجتماعات ، تصل أحياناً إلى حد الطواف بالبلاد والتوجه بالحديث إلى الجماهير ، التى إن لم تحتشد حشدتها السلطات قسراً ! !

ومن هنا ازدهرت الخطابة السياسية وأصبحت من أهم الأسس التى يقوّم عليها الساسة ، ويوزن بها رجال الحكم ، حتى ليكون قسط كبير من نجاحهم والتفاف الجماهير حولهم راجعاً إلى قدرتهم الخطابية .

غير أنه يلاحظ أن هذا النوع من الخطابة كان يعتمد غالباً على تجميل الصياغة وإحسان الأداء ، وقوة التلاعب بعقول الجماهير ، عن طريق التأثير الحسى والتحايل اللفظى . فكان الخطباء السياسيون — فى الأعم الأغلب — أحد رجلين : الأول رجل حكم ، يبسط خططاً لا ينفذ منها إلا أقل من القليل ،

---

(١) انظر : مضابط مجلس النواب منذ افتتاح البرلمان فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٣٩ . وانظر : أيضاً ما يورده عبد الرحمن الرافعى فى كتابه فى أعقاب الثورة المصرية جـ ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) اقرأ : فى أعقاب الثورة المصرية لعبد الرحمن الرافعى : جـ ١ ، ٢ ، ٣ .

و يعطى وعوداً لا يوفى من بينها إلا بالنزر اليسير . وكل همه أن يدافع عن وضعه ووضع حكومته بالحق حيناً و بالباطل فى كثير من الأحايين . والثانى رجل معارضة ، غايته أن يزحزح الحكومة القائمة ، وهدفه أن يسقط الحزب الحاكم ، وذلك لكى يثبت حزبه وتتولى الحكم جماعة من فريقه . وكان ذلك كله يبعد بالخطابة السياسية كثيراً عن دقة الصدق ونبل الهدف ، ويدنيها أحياناً من خداع البهرج وتضليل الشعوذة . ومن هنا كانت أهم أدواتها هى تلك الأدوات المتصلة بإثارة العواطف ، وأبرز سماتها هى تلك السمات المرتبطة باللعب بالمشاعر . فكانت تعتمد قبل كل شيء على العبارة الرنانة والجملة المنغومة واللفظة التى ترتبط بمعناها مشاعر الجماهير ، كألفاظ الاستقلال والحرية ، والدستور والديمقراطية . والبرلمان والشعب . والجهاد والاستشهاد ، وما إلى ذلك .

هذا وقد كان أبرع الخطباء السياسيين فى أوائل تلك الفترة . خطيباً عرفناه فى الفترة السابقة من أبرز خطباء الجمعية التشريعية ، ثم أحد زعماء الثورة المصرية التى ختمت بها تلك الفترة ، هذا الخطيب هو سعد زغلول ، الذى وصل الى الذروة فى الخطابة السياسية — بالمفهوم الذى كانت تعنيه السياسة فى ذلك الحين — فقد عرف بقدرة فائقة على التأثير وكسب المواقف عن طريق الكلمة الملقاة فى الجموع [1] ، وعرفت له وسائل فريدة فى هذا الشأن ، تشخص فى جملتها أهم سمات الخطابة السياسية فى ذلك الوقت . وقد اعتبر سعد لذلك النموذج لخطباء السياسة ، حتى إن معظم الخطباء السياسيين بعده قد تأسوه ، وبلغ ببعضهم الافتتان به أن قلدوه حتى فيما عيب عليه من خصائص لا تتفق والخطابة الممتازة . فقد كان سعد مثلا يقطع الجمل إلى كلمات أو تراكيب يقف على آخر كل منها بالحركة [2] ، فجاء بعض الخطباء

---

(١) انظر : سعد زغلول لعباس العقاد ص ٥٧٥ وما بعدها .

(٢) يعلل العقاد ظاهرة التقطيع عند سعد بأنه كان لا يريد أن يفوه إلا بالكلمة المعينة دون سواها . كما يعلل ظاهرة الوقوف على أواخر الكلمات بالحركة ، بأن سعداً كان منذ صغره محباً =

السياسيين بعده وساروا على الطريقة نفسها . وكان سعد كذلك يوشى خطبه بالسجع ، وخاصة الخطب المعدة ، فجاء بعض المفتونين بسعد وطريقته ونهجوا النهج نفسه ، بل بالغوا فيه كثيراً . ونجد صورة لذلك فى خطب مصطفى النحاس التى كان كثير منها أجزاء جمل — أو كلمات — مقطعة ، يسيطر عليها سجع فيه كثير من التكلف والافتعال .

وكان من أنبه الخطباء السياسيين — بعد سعد — مكرم عبيد ، الذى كان من أهم خصائص خطبه ، اللجوء إلى الاقتباس من القرآن الكريم . وقد كان مكرم فى ذلك ماهراً أشد المهارة ، حيث كان مسيحياً شأنه ألا تكون له صلة بالقرآن الكريم ، فاستشهاده بكتاب الإسلام الأول واقتباسه منه ، يجذب إليه مشاعر الجماهير المسلمة الغفيرة ، ويحملها على الإعجاب بثقافته وسماحته وأخوته !! . وقد كان مكرم يتأسى هو الآخر خطى سعد فى السجع ، وكان يلتزم هذا السجع فى بعض خطبه التزاماً ، ويتفنن فيه تفنناً ، حتى ليجعل بين السجعات الرئيسية سجعات فرعية ، ولكن ذلك كله مع ذكاء وفن ومهارة ، تبعد به كثيراً عن المزالق التى تورط فيها بعض من قلدوا سعداً دون أصالة .

وفى النصف الثانى من تلك الفترة ، ومع نشأة جيل جديد من السياسيين ، نجد طائفة من الشباب تلمع فى ميدان الخطابة السياسية ، ولا تلتزم طريقة سعد ولا طريقة السياسيين القدماء عموما ، فى الميل إلى إثارة العاطفة والتلاعب بالمشاعر ، والجنوح إلى المحسنات التى فى مقدمتها السجع ؛ وإنما تميل هذه الطائفة من الشباب كثيراً إلى مخاطبة العقول والإشارة إلى التاريخ ، وخاصة تاريخ الثورات والحركات السياسية الناهضة ، كما تعمد إلى بسط الحقائق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كل ذلك فى دقة ووضوح وترسل ،

= للامتياز كارهاً للرياء ، فكان فى وقوفه بالحركة مظهراً — منذ صغره — لتمكنه من قواعد الإعراب ، ومعبراً عما فى طبيعته من كره للرياء ، الذى يلجأ إليه البعض حين يسكن ليسلم ويستر الجهل ويرائى بالعلم .

انظر : سعد زغلول للعقاد ص ٥٨٠ ، ٥٨٣ .

دون إغفال لجوانب الحرارة العاطفية والتدفق الخطابى الآسر . وكان يمثل هذا النوع أحمد حسين وفتحى رضوان .

وإذا كانت الخطابة السياسية قد ازدهرت ازدهاراً مشوباً بكثير من العيوب التى فرضتها روح الفترة — وهى روح الصراع السياسى — فإن الخطابة القضائية قد ازدهرت ازدهاراً خالصاً ، وارتقت رقياً سامياً ، حتى اكتملت أهم مقوماتها ورست أقوى دعائمها ، وأصبحت منذ تلك الفترة من جملة التقاليد القضائية الرائعة .

وقد تضافرت عوامل مختلفة ، على منح الخطابة القضائية هذا المستوى الرفيع . وكان فى مقدمة هذه العوامل ، استقرار تقاليد القضاء الوطنى بعد استكمال مراحله وسيره نحو تمام تمصيره ، ثم ظهور جيل من رجال القضاء الممتازين — بعد جيل الرواد — يجمع إلى الثقافةالقانونية المستوعبة قدرة بيانية وخطابية رائعة ، وذلك لما لهم من صلة وثيقة بالتراث العربى وعيون أدبه . كذلك كان من أهم العوامل التى منحت الخطابة القضائية الازدهار والرقى فى تلك الفترة ، ما كان من ممارسة رجال القضاء لعدد من القضايا الكبرى ، التى خلفتها طبيعة المرحلة ، بما حفلت به من معارك سياسية ووطنية[1] . فقد

---

(١) مثل قضية « السردار » ، الذى اغتال فيها بعض الشباب الوطنى المتحمس « السيرلى ستاك » « سردار » الجيش المصرى ، وحاكم عام السودان فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، بينما كان عائداً من مكتبه فى وزارة الحربية إلى بيته فى الزمالك ، حيث أطلق عليه الرصاص من هؤلاء الشبان الذين كانوا يكمنون له فى سيارة بشارع إسماعيل أباظة ، مما أدى إلى وفاته فى اليوم التالى ٢٠ نوفمبر . وقد قدم المتهمون إلى المحكمة فقضت فى ٧ يولية سنة ١٩٢٥ بالإعدام شنقاً على ثمانية هم : عبد الفتاح عنايت ، وعبد الحميد عنايت ، وإبراهيم موسى ، ومحمود راشد ، وعلى إبراهيم ، وراغب حسن ، وشفيق منصور ، ومحمود إسماعيل ، كما قضت بالحبس سنتين على تاسع هو : محمود صالح . ثم استبدل حكم الإعدام بالنسبة للأول ، وجعل الأشغال الشاقة المؤبدة ، ونفذ فى الباقين . انظر : فى أعقاب الثورة المصرية للرافعى ج ١ ص ١٨٣ وما بعدها وص ٢٢٦ .

ومثل قضية « الاغتيالات السياسية » التى اتهم فيها جماعة من الشباب الوطنى — من بينهم أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى — بما كان يصاب به بعض الإنجليز من اغتيالات فى أعقاب =

كانت هذه القضايا فرصة للقضاء المصرى ليمارس عمله على مستوى رفيع . وكانت الخطابة القضائية من أهم وسائل القضاء فى تلك القضايا ، حيث كانت سلاح المعركة للادعاء والدفاع على السواء .

وقد كانت الخطابة القضائية فى تلك الفترة تعتمد كثيراً على قوة الحجة ، ودقة الفهم للنصوص ، وبراعة التفسير للمواد ، وسعة الإلمام بالقانون ، ووفرة الاطلاع على التاريخ . هذا بالإضافة إلى إحكام العبارة وجمال الصياغة وروعة التصوير وقوة التأثير . كذلك كانت أميل إلى الترسل وأبعد عن المحسنات ، بخلاف ما كانت عليه الخطابة السياسية ، وخاصة عند سعد ومن حاكوه .

وقد تألق من بين الخطباء القضائيين عدد وفير من أمثال : أحمد لطفى وصبرى أبو علم وعبد الرحمن الرافعى ومكرم عبيد ووهيب دوس .

= ثورة ١٩١٩ ، وقبل استقرار الأمر للوفد سنة ١٩٢٤ ، وقد كان تدبير تلك القضية والقبض على المتهمين بعد قتل السردار ، وذهاب وزارة سعد ، ومجيء زيور الذى مكن للإنجليز كثيراً . وقد حكم فى هذه القضية سنة ١٩٢٦ وبرىء أكثر المتهمين . انظر : فى أعقاب الثورة المصرية للرافعى ج ١ ص ٢٦٠ وما بعدها .

ومثل قضية الأمير سيف الدين التى كانت فى عهد محمد محمود ، والتى اتهم فيها النحاس سنة ١٩٢٨ باستغلال مركزه واتفاقه — وهو محام — على نيل أتعاب باهظة لقاء رفع الحجر عن الأمير ، وكان ذلك الاتفاق فى فبراير سنة ١٩٢٧ ، قبل تولى النحاس الحكم بشهور ، وكان — كما يقال — يتوقع رياسة الوفد والوصول إلى السلطة . انظر : فى أعقاب الثورة المصرية للرافعى ج ٢ ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٧٥ .

ومثل قضية « البدارى » التى كانت فى عهد صدقى سنة ١٩٣٢ ، والتى اتهم فيها اثنان من المواطنين بقتل مأمور مركز البدارى انتقاماً منه لما ارتكبه من فظائع وحوادث تعذيب ضد بعض الأفراد . وقد وصمت محكمة النقض — برياسة عبد العزيز فهمى فى هذه القضية — رجال البوليس حينذاك ، بأنهم قد أتوا من الأعمال ما هو إجرام فى إجرام مما يدعو المرء إلى الثورة والانتقام . انظر : فى أعقاب الثورة المصرية للرافعى ج ٢ ص ١٧٥ .

وأما الخطابة الدينية فقد ازدهرت ازدهاراً رائعاً ، ولمع فى ميدانها طائفة أسهموا فى الحياة العامة بخطبهم الدينية إسهاماً عظيماً ، بل أرسوا تقاليد جديدة للخطابة الدينية ؛ حيث جعلوها تقرب من الفكر الصحيح ، وتدنو من المنطق العلمى ، وتمتزج بالثقافة الواسعة . هذا إلى جانب البيان المشرق والعاطفة الجياشة والتدفق الأخاذ والروحية الشفافة .

وقد كانت هناك أسباب عديدة أدت إلى ازدهار الخطابة الدينية فى تلك الفترة ، ومن أهم تلك الأسباب تقدم التعليم الدينى تقدماً ملحوظاً ، بسبب إصلاح الأزهر والاهتمام بالدراسات الدينية فى عدد من المعاهد العالية غير الأزهر[1] . كما كان من تلك الأسباب ، تقدم الحياة الأدبية عموماً ؛ واتجاه أعلامها — وخاصة فى النصف الأخير من تلك الفترة — إلى الموضوعات الإسلامية ؛ ثم اهتمام بعض الصحف بالمناسبات المتصلة بالإسلام ؛ واستكتاب كبار الأقلام فى هذه المناسبات . فهذا كله قد فتح للخطباء الدينيين آفاقاً جديدة وأمدهم ببيان حى ؛ ووجه أسلوبهم الخطابى وجهة أرقى .

على أنه كان من أهم أسباب تقدم الخطابة الدينية وازدهارها فى تلك الفترة — فوق كل ما تقدم — تأليف عدد من الجمعيات الدينية ؛ التى كانت لها بدايات طيبة فى التوجيه الدينى والتعبئة الروحية ، والتى كانت الخطابة من أهم أدوات القائمين عليها فى تحقيق ما يقصدون من أهداف .

وقد لمع من بين الخطباء الدينيين فى تلك الفترة عدد من الشيوخ المتأدبين المستنيرين كالشيخ المراغى والشيخ شلتوت . كما لمع عدد من القائمين على بعض الجمعيات الدينية ، ووصل بعضهم إلى حد طبع كثيرين بطريقته وخصائص أسلوبه .

وكان من أهم مميزات الخطابة الدينية فى تلك الفترة ابتعادها نهائياً عن المحفوظ من المواعظ والمكرور من القوالب ، ثم اتجاهها إلى ربط الدين

---

(١) مثل : القضاء الشرعى ودار العلوم وكلية الحقوق .

بالدنيا ، وعدم الفصل بين الإسلام والسياسة ، ثم محاولة إبداء الرأى فى أكثر القضايا الوطنية والقومية . ومعظم المشكلات المعاصرة من دستورية واقتصادية وسياسية ، والبحث لذلك كله عن سند من الإسلام أو رأى فى كتاب الله أو سنة رسوله أو مأثورات السلف . هذا من ناحية الموضوعات ، أما من ناحية الأسلوب ، فكان — فى جملته — أسلوباً مترسلا جيداً ، يجنح كثيراً إلى الاقتباس من القرآن والحديث ، وإلى الاستشهاد بأخبار النبى والصحابة والسلف الصالح ، ويعتمد فى جماله على الجزالة العربية ، والجملة القرآنية ، والبيان الذى عرفناه عند خطباء الإسلام فى عهود الازدهار. هذا مع التدفق والجيشان والحرارة العاطفية ، وخاصة عند بعض زعماء الجمعيات الدينية الذين كانت الخطابة من أبرز مقومات شخصياتهم وأهم وسائل دعوتهم .

وأما الخطابة الاجتماعية ، فقد ازدهرت هى الأخرى ، نتيجة لنمو المجتمع وازدياد مشكلاته وتعدد قضاياه ، وخاصة بعد الاستقلال وتغلب التيار الفكرى الغربى ، ثم نتيجة لتقدم الثقافة وإنشاء عدد غير قليل من الجمعيات والهيئات التى تعنى بشئون المجتمع وتهتم بإصلاحه ، كالجمعيات المتصلة بقضايا الريف أو شئون المرأة ، أو دعوات البر ، وما إلى ذلك .

وقد ، كانت هناك قضايا كثيرة تشغل الأذهان ، وتتبارى الألسن فى نقاشها عن طريق الخطابة الاجتماعية . وكان فى مقدمة تلك القضايا : قضية المجتمع بين المحافظة والتقليد ، وقضية المرأة بين البيت والعمل ، وقضية الإصلاح وأهم وسائله ، والنهوض وأنجع طرائقه ،وما إلى ذلك من قضايا اجتماعية.

وقد لمع فى ميدان الخطابة الاجتماعية طائفة ممن اتجهوا إلى الإصلاح الاجتماعى ، وكانت لهم قدرات خطابية ساعدتهم على توصيل أفكارهم إلى الآخرين . وكان فى مقدمة هؤلاء الأستاذ محمد توفيق دياب ، الذى كان يمثل الخطيب النموذج فى ذلك الحين . حيث كانت تجتمع فيه مقومات الخطيب البارع موهوبة ومكتسبة ، من لسن وحسن بيان ، إلى سعة فى الثقافة واحتفال

كبير بالأداء . فقد كان يعنى كثيراً بالوقفة والحركة والإشارة وحسن التنغيم ، حتى كان فى بعض المواقف أشبه بممثل يؤدى دوراً ، منه بخطيب يلقى حديثاً . وكان كل ذلك مناسباً للمزاج الفنى للعصر الذى كان يعجب أشد الإعجاب بتمثيل يوسف وهبى وما فيه من صنعة وجلجلة .

على أنه فى الجزء الأخير من تلك الفترة ظهرت طائفة من الخطباء الاجتماعيين يعتمدون على المنطق الهادئ أكثر من الاعتماد على البيان الجزل ، ويجنحون إلى التأثير فى الفكر أكثر مما يهتمون بالتأثير فى الوجدان ، ويفضلون لغة الأرقام وبسط الحقائق ، على لغة الشعر والتحليق فى الخيال . وقد كان من ألمع الخطباء الاجتماعيين الذين سلكوا هذا المسلك إبراهيم سلامة ومظهر سعيد ، اللذان قد جمعا إلى المضمون الفكرى والمنهج العلمى قدرة بيانية فائقة وتدفقاً خطابيًّا آسراً .

وقد أدى اتصال هذا النوع من الخطابة اتصالا مباشراً بشئون الناس وأمور حياتهم اليومية ، إلى جنوح بعض الخطباء الاجتماعيين إلى التعبيرات الشعبية والاستعمالات العامية ، فجاءت خطبهم أقرب إلى لغة الشعب ، مما يمكن أن تسمى معه « بالخطابة الشعبية » أى التى تقال بلغة الشعب وتعكس روحه . وقد كان فارس هذا الميدان فكرى أباظة .

هذا ، وقد نشط فى تلك الفترة لون الخطابة الحفلية . وهو ما كان يلقى فى حفلات التكريم والتأبين والاستقبال والتوديع ، وما إلى ذلك من مناسبات تدور حول شخص أو أشخاص ، ولاتتصل بالجماعة اتصالا مباشراً . وهذا اللون من الخطابة قد عرف هو الآخر من قبل ، ولكنه نشط فى هذه الفترة التى يساق عنها الحديث ، نتيجة للتقدم الاجتماعى ومراعاة كثير من التقاليد والمواضعات الراقية ، ثم نتيجة كذلك للصراع الذى كان طابع ذلك العصر ، وكان من نتائجه ظهور زعامات ورياسات عديدة . فكان أعوان تلك الزعامات والرياسات يتلمسون الفرص تلمساً لإظهار الحفاوة بهذا الزعيم أو ذاك

الرئيس . ومن وراء ذلك تكون الدوافع السياسية والحزبية وتتأجج الصراعات التي كانت تحكم ذلك العصر .

وقد كان هذا اللون من الخطابة يحكمه — غالباً — أمران رئيسيان : الأول طبيعة الموقف ، والثانى طبيعة الشخص الذى يدور حوله الحفل ، أما طبيعة الموقف فكانت تجعل من الخطبة خطبة مدح أو رثاء مثلا ، إذا كان القول فى مقام تكريم أو تأبين . وأما طبيعة الشخص الذى يدور حوله الحفل فكانت تلون الخطبة كثيراً بلون فنه أو طبيعة عمله ، فإذا كان من أهل السياسة صبغت الخطبة — مهما كان الموقف — بلون سياسى ، وإذا كان من رجال الأدب خاضت الخطبة كثيراً أو قليلا فى أمور الأدب ، كل ذلك علاوة على كونها أساساً خطبة تكريم أوتأبين . زعلاوة أيضاً على كون قائلها من أهل السياسة والأدب أو من غير هؤلاء وهؤلاء .

وهكذا كانت الخطبة الحفلية تأخذ طابعاً خاصًّا تمتزج فيه — غالباً — عدة خصائص من أنواع مختلفة من الخطابة ، وإن كان يغلب عليها طابع الموقف قبل كل شىء ، هذا الموقف الذى يفرضه موضوع الحفل .

وكان خطباء المحافل هم خطباء السياسة والقضاء والاجتماع . بالإضافة إلى رجال الأدب الذين كانوا يسهمون فى كل هذه الأمور أو فى أكثرها بأوفى نصيب .

ومن أمثلة الخطابة السياسية تلك الخطبة التى قالها سعد زغلول فى حفل أعضاء مجلس الشيوخ ، الذى أقامه له هؤلاء الأعضاء بعد انتخابهم لأول مرة سنة ١٩٢٤ . والتى يقول فيها :

« أيها السادة شيوخنا الكرام : أشكر حضراتكم على هذه الحفلة المملوءة وقاراً ، وعلى هذا التكريم الجامع لأسباب البهجة والسرور ، وأشعر فى نفسى بخجل شديد عندما أتصور أن شخصى الضعيف هو موضوع هذا الاحتفال الشائق ، وأنه المعنى بمدح خطبائكم والمقصود من ثنائكم ، اعتقاداً منى أنى دون ما تصفون . ولا شك أنكم تغرفون لى من بحار فضلكم ، وأنكم

إنما تنظرون إلى بالنظرة العاطفة ، لا بالنظرة الكاشفة . جزاكم الله أحسن الجزاء ، وأقدرنى على أن أستحق هذا الثناء .

« وبعد فإنى أهنئكم من كل قلبى بالثقة التى اكتسبتموها من البلاد .. لأن تؤلفوا مجلس الشيوخ فى أول برلمان فى بلادنا على الطراز الحديث . وأعد نفسى سعيدة بأنى أول وزير مصرى لحكومة دستورية ، تستمد قوتها من إرادة الشعب وتستند فى بقائها على ثقة نوابه ...

« ستصبح هذه المبادئ بعد يوم واحد نافذة المفعول فينا ، ويصبح أمر الكل للكل ، ويشعر كل مصرى أن حياته وحريته وشرفه وماله وولده ، كل ذلك ، تحت حماية القانون ، وأن على القانون حارساً قوياً أميناً هو البرلمان ، وأن البرلمان تحت حراسة أمة يقظة ، والكل فى ذمة الله وعنايته .

« بعد يوم واحد تجد الوزارة نفسها مسئولة أمام نواب البلاد ، وأن عليها أن تبرر أعمالها العامة أمامكم ، كما تبررها أمام ضمائرها الخاصة ، وتشعر من جهة أخرى بخفة ثقل المسئولية الملقاة عليها ؛ لوجود قوة بجانبها تقاسمها هذه المسئولية ، كما تشاطرها النظر فى إدارة أمور البلاد .

« بعد يوم واحد يحل احترام الحكومة محل الخوف منها ، ويشتد القرب منها بعد البعد عنها ؛ إذ يستيقن الكل أنها ليست إلا قسماً من الأمة تخصص لخدمتها العامة ، حسب القانون والمبادئ الديمقراطية ، وأن لكل واحد حصته فيها مباشرة أو بالواسطة ، فيبذل الكل جهودهم فى معاونتها على القيام بمهمتها الخطيرة .

« وأكبر هذه المهمات شأناً وأخطرها قدراً وأشغلها لعقلى ولبى ، هى مهمة الاستقلال التام لمصر والسودان . . . يتلو هــذه المهمة مهمة القيام بالإصلاحات الداخلية ، وحل ما عقده الماضى من المشكلات ، وتذليل ما أقامته السياسات من العقبات فى طريقنا . وما هذا بالهنات الهينات .

« ... فعلى الذين يحملهم فرط الحب للبلاد على تعجلنا أن يتريثوا بنا ويتمهلوا ، لأن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة . ولكل شيء وقته ووسائله ، وعليهم أن يعتقدوا كل الاعتقاد أن هناك عقولا مشغولة بهذه المهام ، وعزائم معقودة على معالجتها . وأن التأخير فيها ليس قصوراً أو تقصيراً ، ولكنه جرى مع الطبيعة على حكمها . وليتأكدوا أننا نزداد كل يوم قوة فى الإرادة ، ومضاء فى العزم ، وثباتاً فى الخطة ، وغيرة على الصالح العام . فليصبروا ، إن الله مع الصابرين . وليثقوا بنا ، إننا لا نقصد إلا خيرهم ، ولا نفتر طرفة عن خدمتهم ، ولا نترك فرصة تمر حتى ننتهزها لبلوغ المراد . حقق الله أملنا ، ووفقنا جميعاً إلى الرشاد[1] » .

ومن أمثلة الخطابة الاجتماعية تلك الخطبة التى قالها توفيق دياب بعنوان : « الشباب المصرى خيوط الحاضر ونسيج المستقبل » والتى منها قوله :

« ... لا رجاء فى أمة إلا أن يكون لها إيمان ، ولا فى شباب أمة إلا أن يكونوا مؤمنين .

« وليس المهم كيف تؤمن ، وإنما المهم أن تؤمن . نعم ، ولكن تؤمن بماذا ؟ تؤمن بشيء أنت دونه وتريد أن تسمو إليه . تؤمن بقوة تستعين بها على ضعفك ، تؤمن بباعث عظيم من بواعث الأمل وبواعث العمل ، تؤمن بمثل من الأمثلة العليا تريده لنفسك فرداً ولأمتك جماعة ، تؤمن بمثل عال من الشجاعة يصونك من التذلل والخور ، تؤمن بمثل عال من الكرامة يصونك عن كل مهين وخسيس .

« أما أنا فواحد من الذين يؤمنون بالقوة العظمى التى تجمع الصفات الحسنى فى اسم الله . وإيمانى به إيمان الضعيف بالقوى ، ولكن حين أستمد منه القوة أحس كأنى ارتفعت فوق المناعم والمتاعب ، وفوق الفقر والغنى ،

---

(١) اقرأ هذه الخطبة فى : آثار الزعيم سعد زغلول ، جمع وترتيب إبراهيم الجزيرى ج ١ ص ٩١ — ٩٣ .

وفوق الإخفاق والنجاح ، بل فوق الموت والحياة ، لأنى ارتكنت إلى العمد الباقى .

« . . . ليس مؤمناً بالله من لا يؤمن بالوطن ، أليست مصر كبرى أنعمه عليكم ؟ أجرى فيها كوثره . وأسبغ عليها رزقه ، وكساها من جماله ، وجعل لها السبق فى الأولين ليلحق بها المتخلفون ، وامتحنها فى الحاضرين بمحنة التخلف لتنهض فتلحق السابقين ؟ . . . إن من جحد نعمته ، وعق كنانته ، واتخذها سخرية ولعباً ، فهو بربه من الساخرين »[1] .

ومن أمثلة الخطابة الحفلية الخالصة — التى راعت الموقف فحسب — خطبة مكرم عبيد فى حفل تأبين سعد زغلول ، والتى يقول فيها :

« إذن فقد مات سعد . وهذه الحفلة الحافلة هى حفلة الزعيم فى موته . إى وربى وحفلته الأولى ! . وهذه الجموع الحاشدة قد جاءت لتسمعه خطيباً محدثاً . لا وربى ، بل حديثاً يُروى ! . وهذه العيون اللوامع قد ألهبها بريق ناظريه . لا وربى . بل حرقة الذكرى ! . وهذا السكون . وهذا الخشوع ، وهذا الجلال ، إن هى إلا مظاهر العزة والعظمة للعزيز العظيم فينا . لا وربى ، بل ضريبة الموت فرض على كل مصرى أن يؤديها مرة بعد أخرى ! . فقد مات من كان حياً فى كل قلب وأصبحت حياته شيئاً يُتلى ! . وقد سكن من كان ناطقاً فى كل لسان ، وأصبح الكلام فيه دمعاً يُزْجَى .

« لقد دارت دورة الشؤم فشاءت أن أرثى سعداً باكياً نائحاً ، وقد اعتاد لسانى ألا يذكره إلا شادياً صادحاً . فسامحونا إذا ألح بنا الألم فضاقت عنه مآقينا ، فقد حرمنا حتى سلوة البكاء عليه فى منيته ، وحتى نظرة الوداع إلى جثته ، وحتى خطوة التشييع فى رحلته[2] ، وقد كان والله يحنو على أشخاصنا فى محنته ، ويبكى على أمراضنا فى رحمته ، ولا يبغى بنا بديلا فى غربته[3] .

---

(١) اقرأ نص هذه الخطبة فى جريدة الجهاد عدد ١٠ فبراير سنة ١٩٣٤ .

(٢) يشير الخطيب إلى أنه كان خارج البلاد وقت موت سعد ودفنه .

(٣) يشير الخطيب إلى ما كان من زمالته لسعد حين نفى إلى سيشل سنة ١٩٢١ .

« إذن وقعت الواقعة التى طالما هادنا عليها القدر . وانتزع الموت فى لحظة من ضنت به الأجيال متعاقبة ، وتعبت فى صنعه وصوغه العظائم والعبر . فكان لها عوناً على الدهر ، وكان هو المدّخر . إذن فقد نفذ السهم وحم القدر . ذلك الذى كنا إلى الأمس نتادى به ، إذا انطلق السهم إليه ارتد وانكسر . وإذا التطم الموج بصخره عج وانحسر . وإذا امتدت إليه يد الحوادث ارتد القدر . عجبا هل تطاول القبر إلى مكان فوق هامات البشر ؟ . أم أن تلك العظمة الشامخة لما لم تجد علواً ترتفع إليه قد تواضعت فتدانت حتى ذلك المستقر ؟ . سبحانك ربى ، بل أردت فقدرت ، فمنك الوجود ، وإليك المفر »(١) .

ومن نماذج الخطب التى لُونت بلون المقول فيه ، فأخذت طابعاً موضوعياً خطبة طه حسين فى حفل تكريم العقاد الذى كان قد أقيم له سنة ١٩٣٤ بمناسبة نظمه « النشيد القومى »(٢) . وهى الخطبة التى بايع فيها طه حسين العقاد بإمارة الشعر ، وفيها يقول :

« . . . نحن حين ندرس الشعر مضطرون إلى أن ندع ميولنا وأهواءنا وعواطفنا ، وإلى أن نحكم عقولنا وذوقنا وحده ، ونحن إذن من هذه الناحية بخلاء بالمدح ، بخلاء بالثناء ، لا نقدم المدح إلا بمقدار ، ولا نثنى إلا بشئ كثير من الاحتياط ؛ لأننا نزعم أننا أمناء على الفن . وأن النقد يضطرنا إلى أن نتجنب الغلو والإسراف . ومع هذا فإنى أريد أن أكون منصفاً مسرفاً فى الإنصاف إن صح هذا التعبير ، وأريد أن لا أتحرج فى المدح أو الثناء ،

---

(١) اقرأ نص هذه الخطبة فى : عبرات الشرق على الزعيم سعد زغلول ، جمعه البحيرى ص ٢٧٨ .

(٢) كان هذا الاحتفال فى مسرح حديقة الأزبكية مساء الجمعة ٢٧/٤/١٩٣٤ ، وكان برئاسة رئيس الوفد . وكان طه حسين فى تلك الفترة يكتب فى صحف الوفد نتيجة للوفاق الذى كان بين الأحرار والوفد ، والتكتل لمقاومة صدقى . انظر : العقاد – دراسة وتحية – ص ٢٢٧ .

ولكنى على كل حال أعلن إليكم راضياً سعيداً أنى مضطر أن أثنى على العقاد الشاعر من غير تحفظ أو احتياط .

« لنا نحن النقاد مع العقاد مواقف ، يالها من مواقف ، نختصم فيها حول المعنى اختصاماً مرهقاً عنيفاً ، ونختصم معه فى اللفظ اختصاماً نضيق نحن به ويضيق به الناس ، ولكننا حين نختصم معه فى معنى أو لفظ ، أو حين نشتط عليه فى النقد ، لا نزيد على أن نعترف له أنه الشاعر الفذ ، ولولا أنه الشاعر الفذ لما خاصمناه .

« أما أنا أيها السادة فسعيد بهذه الفرصة التى أتيحت لى ، ومكنتنى من أن أعلن رأيى فى صراحة وأن أقول — وقد يكره هذا منى كثير من الناس — مكنتنى من أن أقول ، بالرغم من الذين سخطوا والذين سيسخطون : إنى لاأومن فى هذا العصر الحديث بشاعر عربى كما أومن بالعقاد . أنا أعرف حق المعرفة وأقدر كما ينبغى نتيجة هذه المقالة التى أعلنها سعيداً مغتبطاً . أعلم هذا حق العلم ، وأعلنه مقتنعاً به محتملا تبعاته ، وقد تعودت احتمال التبعات الأدبية .

« تسألوننى لماذا أومن بالعقاد فى الشعر الحديث ، وأومن به وحده ؟ وجوابى يسير جداً . لماذا ؟. لأننى أجد عند العقاد مالا أجده عند غيره من الشعراء ، وإن شئتم فإننى لا أجد عند العقاد ما أجده عند غيره من الشعراء ؛ لأنى حين أسمع شعر العقاد ، أو حين أخلو إلى شعر العقاد، فإنما أسمع نفسى أو أخلو إلى نفسى ، إنما أرى صورة قلبى وصورة قلب الجيل الذى نعيش فيه ، وحين أسمع لشعر العقاد ، إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة ، وأتبين المستقبل الرائع للأدب العربى الحديث، إنما أرى شيئاً لا أراه عند غيره من الشعراء . تستطيعون أن تنظروا فى أى ديوان من دواوين العقاد ، لا أطلب منكم أن تقرأوا شعر العقاد الآن، إنما انظروا فى الفهرست وحده ، فسترون من هذه النظرة اليسيرة فى هذه الصفحات القليلة ، أن العقاد شىء آخر ، وأن شعر العقاد شىء آخر ،

وأنه أرسل ليتحدث إلى نفوسكم أحاديث لم يتحدث بها أحد من قبل .

« ثم لماذا أيضاً ؟ لماذا أكبر العقاد وأومن به وحده دون غيره من الشعراء فى هذا العصر ؟ لأن العقاد — أيها السادة — يصور لى هذا المثل الأعلى فى الشعر الذى أحببته وتمنيت وجاهدت فى أن يحبه الشباب، هذا المثل الأعلى الذى يجمع بين جمال العربى القديم وبين أمل المصرى الحديث ، هذا المثل الذى ليس محافظاً مسرفاً فى المحافظة ، وليس مجدداً مسرفاً فى التجديد ، إنما هو مزاج مقتصد منهما ، هو حلقة اتصال ، هو صلة خصبة بين مجدنا القديم وما نطمع فيه من مجدنا الحديث .

« . . . كنا أيها السادة نشفق على الشعر العربى ، وكنا نخاف عليه أن يرتحل سلطانه عن مصر ، وكنا نتحدث حين مات الشاعران العظيمان شوقى وحافظ ، كنا نتحدث عن علم الشعر العربى المصرى أين يكون ومن يرفعه للشعراء والأدباء يستظلون به ؟ كنا نسأل هذا السؤال ، وكنت أنا أسأل هذا السؤال ، لماذا ؟ لأنى كنت أرى شعر العقاد ، على علو مكانته وجلال خطره شعراً خاصاً مقصوراً على المثقفين والمترفين فى الأدب ، وكنت أسأل : هل آن للشعر القديم المحافظ المسرف فى المحافظة أن يستقر وأن يحتفظ بمجده ، وهل آن للشعر الجديد الذى يصور مجد العرب وأمل المصريين أن ينشط ويقوى ؟ انتظرت فلم أجد للمقلدين حركة أو نشاطاً ، فإذا المدرسة القديمة قد ماتت بموت شوقى وحافظ ، وإذا المدرسة الجديدة قد أخذت تؤدى حقها ، وتنهض بواجبها ، فترضى المصريين والعرب جميعاً ، وإذا الشعر الجديد يفرض نفسه على العرب فرضاً ، وإذا الشعور المصرى والقلب المصرى والعواطف المصرية أصبحت لا ترضى أن تصور كما كان يصورها حافظ وشوقى ، إنما تريد وتأبى إلا أن تصور تصويراً جديداً ، هذا التصوير الذى حمل الملايين على إكبار العقاد كما قال أحد الخطباء . إذن لا بأس على الشعر العربى والأدب العربى ، وعلى مكانة مصر فى الشعر والأدب .